

بعض ملامح الإعجاز القرآني الاقتصادي في معالجة الأزمة المالية العالمية

الحلقة (1)



أ. د/ كمال توفيق حطاب
وكيل الجامعة للشؤون الأكاديمية
جامعة المدينة العالمية

تمثل أهم مؤشر على وجود إعجاز اقتصادي قرآني، خاصة فيما يتعلق بمعالجة الأزمات الاقتصادية بشكل عام، والأزمة المالية المعاصرة بشكل خاص.

وتتعرض هذه الدراسة أن ما توصل إليه البشر في مجال تحقيق الاستقرار الاقتصادي^٢ هو بسيط جدا وضعيف جدا مقارنة بما هو موجود في القرآن، حيث يوجد في القرآن من الآيات والنصوص ما يحقق كافة أشكال الاستقرار الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والنفسي والروحي.

ولفحص هذه الفرضية فيما يتعلق بالاستقرار الاقتصادي سوف يتم التركيز على الآيات القرآنية وما تسعى لتحقيقه من استقرار اقتصادي بعيدا عن الأزمات والتقلبات، ومن ثم ننظر فيما توصل إليه الاقتصاديون في هذا المجال، وسوف يتضح جليا أن ما توصل إليه البشر لا زال ضعيفا ومحدودا وناقصا.

ويأتي هذا الموضوع في الوقت الحاضر ضمن تطورات اقتصادية عالمية واعترافات من قبل عدد كبير من المفكرين الغربيين، بأن العالم لو أخذ بتعاليم القرآن الاقتصادية لما وقع في الأزمة المالية العالمية^٣، فما هي هذه التعاليم القرآنية التي تحول دون وقوع الأزمات؟ وقبل ذلك ما هي الضوابط القرآنية التي تضمن استمرارية تحقيق الاستقرار الاقتصادي؟ وما هي الأسباب التي أدت إلى انحراف البشرية عن هذه الضوابط والوقوع في الأزمة المالية العالمية وما نجم عنها من كساد عالمي؟ ثم ما هي الحلول القرآنية لهذه الأزمة؟ وما هي ملامح الإعجاز القرآني الاقتصادي التي يمكن استنباطها في ضوء الحلول والعلاجات القرآنية للأزمة المالية العالمية؟



ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى توضيح وبيان أهم الضوابط القرآنية التي تؤدي إلى تحقيق الاستقرار والتوازن الاقتصادي وتحول دون حدوث الأزمات وبشكل خاص فيما يتعلق بالأزمة المالية العالمية المعاصرة.

وللوصول إلى هذا الهدف يبدأ البحث بعرض الضوابط القرآنية المؤثرة في تحقيق الاستقرار الاقتصادي من خلال التأثير في العرض والطلب، ثم يعرض للأسباب الحقيقية للأزمة العالمية والحلول والعلاجات القرآنية لهذه الأزمة، ولكافة الأزمات الاقتصادية بشكل عام.

ويخلص البحث في النهاية إلى وجود ضوابط قرآنية لا بد من العمل بها إذا ما أراد العالم الخروج من الأزمة المالية العالمية المعاصرة، وتجنب وقوع أزمات مالية عالمية جديدة، وهذه الضوابط تمثل بعض ملامح الإعجاز القرآني الاقتصادي.

مقدمة:

اتفقت كلمة العلماء على أن الإعجاز في القرآن الكريم لا ينحصر في جانب واحد، كما اتفقوا على أن العقول لم تصل حتى الآن إلى إدراك نواحي الإعجاز كلها وحصرها في وجوه معدودات. وأنه كلما ازداد التدبير في آيات القرآن وكشف البحث العلمي عن أسرار الكون وسننه، تجلت نواح من نواحي إعجازه وقام البرهان على أنه من عند الله^١.

ولئن كان البحث في جوانب الإعجاز في القرآن الكريم في العلوم البحتة التطبيقية قد اتضحت معالمه وظهرت آثاره، فإن جوانب الإعجاز في القرآن في موضوعات العلوم الاجتماعية والإنسانية ومنها العلوم الاقتصادية لا زالت بكرا.

ونظرا لهذا التعدد اللانهائي في جوانب الإعجاز في القرآن الكريم، ونظرا لاستحالة حصر هذه الجوانب جميعا، فسوف نركز هذه الدراسة على الضوابط القرآنية الاقتصادية والتي

بين المترفين والمحرومين في المجتمع، إضافة إلى الاختلافات في البيئة واستخدام الموارد.

ومن جهة أخرى فقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى قانون العرض والطلب - ولو بشكل غير مباشر - في حديث أنس الذي يقول فيه: "غلا السعر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا يا رسول الله لو سعرت. فقال: إن الله هو القابض الباسط الرازق المسعر، وإني لأرجو أن ألقى الله ولا يطلبني أحد بمظلمة ظلمتها إياه في دم ولا مال"¹

فقوله صلى الله عليه وسلم "إن الله هو القابض" بمعنى المسك أو المانع "الباسط" بمعنى المعطي والواهب، فالقبض يؤدي إلى انكماش وكساد والبسط يؤدي إلى توسع ومن ثم غلاء وتضخم، ونتيجة للقبض والبسط تلتقي رغبات البائعين والمشتريين فيحصل الرزق، فالله هو الرازق، يرزق الناس بعضهم من بعض كما أنه بالتقاء القبض والبسط يتكون سعر التوازن، فالله هو المسعر.

وهكذا فإننا نجد أن الحديث يشير - ولو بطريق غير مباشر - إلى كيفية تكون السعر أو تحديد القيمة، ومن المعروف أن تحديد السعر وفقاً لقانون العرض والطلب لم يتبلور بشكل نهائي إلا من خلال كتابات مارشال في نهاية القرن التاسع عشر.

وبالرجوع إلى القرآن الكريم فإننا سوف نجد ضوابط قرآنية لجانب الطلب والعرض بما يؤدي في النهاية إلى تحقيق الاستقرار والتوازن ويحول دون وقوع الأزمات.

ففي جانب الطلب نجد في سورة البقرة - على سبيل المثال - نظرية متكاملة للإنفاق تحتوي على ضوابط قرآنية كفيلة بتحقيق الاستقرار والتوازن في المجتمع، بما يؤدي إلى عدالة توزيع الدخل وتخفيف حدة التفاوت في المجتمع، والوصول إلى الاستخدام الأمثل للموارد الاقتصادية.

هذه هي أبرز الأسئلة التي يدور حولها هذا البحث، وللإجابة عليها سوف يشتمل البحث على ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول: الاستقرار الاقتصادي في ضوء القرآن الكريم² إن تأمل الآيات ذات الموضوعات الاقتصادية في القرآن الكريم، يوضح بجلاء مدى الاستقرار والتوازن الاقتصادي الذي سوف يتحقق في المجتمع فيما لو تم العمل بمضمون هذه الآيات، بل إنه يمكن القول أنه من الممكن استنباط سياسات تحقيق الاستقرار الاقتصادي من آيات القرآن الكريم.

وسوف نجد في القرآن الكريم آيات عديدة يمكن تصنيف مضمونها تحت جانب تنظيم الطلب وآيات أخرى يمكن تصنيف مضمونها تحت جانب تنظيم العرض وكذلك طائفة أخرى من الآيات يمكن تصنيف مضمونها ضمن سياسات تحقيق الاستقرار الاقتصادي

ومن جهة أخرى يمكن تصنيف الآيات الأمانة بفعل أو الناهية عن سلوك معين ضمن سياسات تحقيق الاستقرار الاقتصادي سواء بشكل مباشر أو غير مباشر.

وللتمثيل على هذه الحقائق السابقة من خلال الآيات القرآنية، يمكن تنظيم جانب الطلب الاقتصادي من خلال الالتزام بالعمل بمضمون آيات الإنفاق المبنوثة في القرآن الكريم في سور عديدة، كما يمكن اعتبار آيات تحريم الربا من أبرز الضوابط المنظمة لجانب العرض الاقتصادي.

كذلك يمكن النظر إلى آية المداينة في سورة البقرة، وهي أطول آية في القرآن الكريم على أنها من أبرز الآيات التي يؤدي العمل بمضمونها إلى استقرار المعاملات والمدائيات والمدفوعات الآجلة وما يترتب على ذلك من انتظام سير العجلة الاقتصادية في المجتمع.

وبناء على ما تقدم سوف يتم عرض الآيات ذات المضمون الاقتصادي المنظمة للطلب والعرض والمحققة للاستقرار الاقتصادي من خلال آيات سورة البقرة، وذلك كما يلي:

الآيات المنظمة للطلب الاقتصادي³:

يمثل الطلب الكلي⁴ أو الإنفاق الكلي أهم أسس النظرية الاقتصادية الحديثة، فمن خلاله تتحدد كافة العوامل والمتغيرات المؤثرة في الاقتصاد الكلي، فالتقلبات غير المنضبطة في الإنفاق الكلي تؤدي إلى تقلبات عنيفة في الاقتصاد الكلي، كما أن توجيه الإنفاق الكلي باتجاه قطاعات محددة دون قطاعات أخرى يؤدي إلى تشوهات واختلالات اقتصادية، وكذلك توجيه الإنفاق الكلي تجاه الكماليات أو تجاه النشاطات العقيمة غير المنتجة⁵ يؤدي إلى حرمان المجتمع من ثمرات هذا الإنفاق مما يزيد من حدة التفاوت في توزيع الدخل واتساع الفجوة



لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ
يجب أن يكون الإنفاق بلا من ولا أذى حتى يؤتي أكله ويحدث
آثاره الطيبة في المجتمع، أما المن والأذى فهو يحقق الإنفاق
وآثاره، ويحيله هباء منثورا.

نهى عن إبطال الصدقة بالمن والأذى. وهو سلوك كان منتشرًا
في الجاهلية. وكان الكرم الجاهلي بقصد الرياء والسمعة
غالبًا. فأراد الله عز وجل أن يهذب تلك النفوس ويقومها،
ويستأصل منها الرياء والعجب والمن والأذى، فنهاهم عن إتباع
الصدقة بالمن والأذى، وشبه قلب المنافق المرآة بصفوان عليه
تراب فأصابه وابل فتركه صلبًا. فعندما يهطل المطر الغزير
على الحجر الصلب، تكشف قساوته، وينكشف أمره واستحالة
أن ينبت كلاً أو يخرج زرعاً أو ثمرًا، وذلك مثل القلب القاسي
المغلف بالرياء والسمعة والمن والأذى، مهما أنفق صاحبه فلن
يجد لإنفاقه ثمرة أو نفعًا. لا يقدرُونَ على شيء مما كسبوا.

أما المؤمن الذي ينفق النفقة في سبيل الله فلا تعلم شماله ما
أنفقت يمينه، فمثله كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها
ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل. فمثله كمثل الأرض الخصبة
المرتفعة يصيبها المطر الغزير فتؤتي أكلها ضعفين، وحتى لو
لم يصبها مطر غزير وأصابها رذاذ المطر فإن هذا يكفي لأن
تثبت وتزهر. لأن قلب المؤمن مليء بالخير والعطاء والتضحية
والإيثار.



ثالثاً: تقييد الإنفاق بالطيبات:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا
أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتِمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ
وَلَسْتُمْ بِأَخْذِهِ إِلَّا أَنْ تَغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ"
"كما أن الإنفاق لا بد له من ضوابط فهو إنفاق من الطيبات
لا من الخبائث، ومعلوم ما للطيبات من آثار عظيمة في زيادة
الإعمار والإصلاح، وبالتالي زيادة التقدم. أما الخبائث فهي
تزيد من الفساد والخراب والفوضى وبالتالي تزيد من التخلف.
وهذا يعني أن كافة أشكال الخبائث أو الأنشطة الخبيثة المحرمة
غير معتبرة في الإنفاق، وذلك لما يترتب عليها من ضرر وفوضى
وأزمات تزيد في التقلبات والمشكلات الاقتصادية.

ويمكن توضيح هذه الضوابط الموثقة في بعض الآيات القرآنية
في سورة البقرة، وذلك في النقاط التالية:

أولاً: مضاعفة ثواب الإنفاق في سبيل الله:

قال تعالى " مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ
حَبَّةٍ أُنْبِتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١ "

جاء في كتاب في ظلال القرآن " إن الدستور لا يبدأ بالفرض
والتكليف إنما يبدأ بالحض والتأليف. إنه يستجيش المشاعر
والانفعالات الحية في الكيان الإنساني كله. إنه يعرض صورة
من صور الحياة النابضة النامية المعطية الواهية: صورة الزرع.
هبة الأرض أو هبة الله. الزرع الذي يعطي أضعاف ما يأخذه،
ويهب غلاته مضاعفة بالقياس إلى بذوره. يعرض هذه الصورة
الموحية مثلاً للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله "١١ :

فهو استثمار يتضاعف إلى سبعمئة ضعف والله يضاعف لمن
يشاء، وهو استثمار أخروي وديني، تبدو ثمراته المضاعفة في
حياة الفرد قبل موته، من خلال تطهير ماله وتجديد البواعث
النفسية الإيجابية لدى المنفق، مما سيؤدي إلى مضاعفة جهوده
وعطائه، وبالتالي زيادة دخله وأرباحه.

جاء في تفسير ابن كثير " هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف
الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته وأن الحسنه تضاعف
بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف. فإن هذا فيه إشارة إلى أن
الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها كما ينمي
الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة وقد وردت السنة بتضعيف
الحسنة إلى سبع مئة ضعف "١٢

وقد جاءت آيات الإنفاق في سورة البقرة لكي ترسخ في النفوس
حب الإنفاق، ولكي تكسب الجوارح عادة الإنفاق، بحيث يصبح
الإنفاق جزءاً من حياة المؤمنين جميعاً.

فالآيات تدفع المؤمنين إلى ممارسة هذا السلوك الاقتصادي
الذي يزيد في الطلب فيزيد في الدخل فالإنتاج فالتشغيل وهكذا
تزداد عجلة النشاط الاقتصادي ويزداد المجتمع تقدماً.

ونظراً لأن المضاعف في الاقتصاد الإسلامي أكبر منه في
الاقتصاد الوضعي كما أثبت ذلك عدد من الباحثين^{١٣}، وبالتالي
فإن الدخل الذي يتولد عن تيار الإنفاق يكون أكبر، وبالتالي
يزداد التشغيل والإنتاج بشكل أكبر.

ثانياً: ضبط الإنفاق بعدم الرياء أو المن والأذى:

قوله تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْلُغُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ
وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا



العدو من الكفار روي ذلك عن قتادة لأن الإحصار منع النفس عن التصرف لمرض أو حاجة أو مخافة فإذا منعه العدو قيل أحصره^{١٥} " فهي من أكثر الفئات استحقاقا للإنفاق وبالتالي فإن الإنفاق الموجه إليها سوف يتحول إلى طلب فوري، مما يزيد من الدخل والإنتاج والتشغيل في المجتمع^{١٥}.

سادسا: ديمومة واستمرارية الإنفاق:

قوله تعالى " الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " ٢٧٤

وهكذا كان الحث على الإنفاق ليلا نهارا سرا وعلانية، فكأن تيار الإنفاق لا ينبغي أن يتوقف لحظة واحدة، لأن هذا التوقف سوف يوقف عجلة الاقتصاد، وكلما ازدادت فترة التوقف، فإن كسادا وتعطلا سوف يحدث، وهكذا

وعندما نعود إلى الفكر الاقتصادي والنظرية الاقتصادية نجد أن معظم المفكرين المعاصرين ركزوا على أهمية الإنفاق، وقد برز كينز في القرن العشرين من خلال دعوته إلى اعتبار الإنفاق هو الأساس في حل المشكلات وتحقيق الاستقرار الاقتصادي، بعد أن كان الفكر الاقتصادي الكلاسيكي يركز على العرض، واعتبر الاقتصاديون أفكار كينز ثورة أو انقلابا في الفكر الاقتصادي، ولا يزال الفكر الكينزي والمدرسة الكينزية تدرس في مختلف كليات الاقتصاد في العالم باعتبارها من أفضل ما أبدعه العقل البشري.

وقد ترجمت كليات الاقتصاد في الجامعات العربية والإسلامية الفكر الكينزي، ولا زالت تدرسه لطلابها.

غير أن الفكر الكينزي لم يفرق بين الإنفاق الطيب أو الخبيث ولم يتحدث عن أخلاقيات الإنفاق وأدابه.

وإذا عدنا إلى ما بدأنا به فإننا نجد أن القرآن الكريم قد تحدث عن الإنفاق من الطيبات والإنفاق الدائم القليل والكثير، وتحدث عن مواطن الإنفاق، ونظم الأولويات فيه، بحيث تبقى المبادئ القرآنية في الإنفاق خالدة، قبل كينز وبعد كينز وغيره من الاقتصاديين.

رابعا: استئصال العادات الخبيثة في الإنفاق:

وزيادة في التأكيد والحرص على استئصال العادات الخبيثة المرافقة للإنفاق يعرض القرآن الكريم مشهدا تصويريا آخر في قوله تعالى " أَيْدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فَاصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ " ٢٦٦ وهي صورة حية مؤثرة تهز القلوب، فبعد أن أمسى الرجل في أرذل العمر وهو في أشد الحاجة إلى بستانه وثماره، خاصة وأن لديه ذرية ضعفاء، عندئذ يصيبها الإعصار فتحترق. وذلك مثل من يتبع إنفاقه بالمن والأذى فإنه يحرق الصدقة ويحرق ثمرة الإنفاق، وهو في حاجة ماسة إلى ثمرة الإنفاق.

وزيادة في ترسيخ آداب الإنفاق وتربية المنفق حتى يؤدي الإنفاق أكله في المجتمع يتكرر التأكيد على أن يكون الإنفاق من الطيبات " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ غَمِيمٌ " ٢٦٧

ثم توضح الآية التالية أن سلوك الشح والتقتير وتقديم الإنفاق الخبيث هو شكل من أشكال الفحشاء التي يأمر بها الشيطان " الشَّيْطَانُ يُعِدُّكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ " ٢٦٨

فالشيطان هو الذي يعد بالفقر وهو الذي يأمر بالفحشاء. وهذا الإنفاق الخبيث شكل من أشكال الفحشاء لما يترتب عليه من آثار خبيثة في النفوس، فهو يوغر الصدور ويولد البغضاء بدلا من الرحمة والتسامح والإخاء.

فالشيطان هو الذي يعد بالفقر وهو الذي يأمر بالفحشاء. وهذا الإنفاق الخبيث شكل من أشكال الفحشاء لما يترتب عليه من آثار خبيثة في النفوس، فهو يوغر الصدور ويولد البغضاء بدلا من الرحمة والتسامح والإخاء.

خامسا: ضبط الإنفاق بالجهات الأكثر فقرا:

قوله تعالى للفقراء الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَافًا وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ٢٧٣.

لا بد أن يكون الإنفاق في مواضعه الصحيحة، فهذه الفئة وهي في الآية فئة المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وهاجروا إلى المدينة لا يملكون شيئا.

جاء في أحكام القرآن " المراد فقراء المهاجرين وقوله تعالى أحصروا في سبيل الله قيل إنهم منعوا أنفسهم التصرف في التجارة خوف

٧. انظر: عفر، محمد عبد المنعم: الاقتصاد الإسلامي (الكلبي) دار البيان، جدة، ١٩٨٥.
٨. تعبر سياسات الاستقرار الاقتصادي عن الإجراءات الحكومية في المجال الاقتصادي، وتتمثل في السياسة النقدية والسياسة المالية وسياسة التشغيل والأجور والسياسة الزراعية والتجارية والصناعية وكافة السياسات الاقتصادية تهدف في النهاية إلى تحقيق الاستقرار الاقتصادي. ومن الملاحظ وجود تضارب وتخطيط في هذه السياسات في معظم دول العالم مما يزيد من التقلبات والأزمات الاقتصادية المتتالية.
٩. تركز هذه الدراسة على عرض أمثلة للاستقرار الاقتصادي من خلال بعض آيات سورة البقرة، ولا يعني ذلك أن هذه الآيات فقط هي التي تتناول جانب الاستقرار الاقتصادي.
١٠. يعرف الطلب بالمعنى الاقتصادي بأنه الكمية من السلعة أو الخدمة التي يمكن شراؤها عند سعر معين في فترة معينة، ومعنى ذلك أنه يجب أن يكون مدعوما بقوة شرائية، وعندما يكون الطلب على مستوى المجتمع يعبر عنه بالطلب الكلي، أو الإنفاق الكلي، وهو الطلب الفعال وفقا لكينز والذي يتحدد عنده حجم الدخل وحجم العمالة عند مستوى التوازن. انظر: عمر، حسين: موسوعة المصطلحات الاقتصادية، دار الشروق، جدة، ١٩٧٩، ط٣، ص ١٦٢-١٦٣.
١١. يلاحظ في الوقت الحاضر أن الإنفاق على مستوى العالم موجه في معظمه لأنشطة عقيمة مثل المضاربات في الأسواق المالية والمقامرات والمراهات وبيع الوهم كالخيارات والمستقبلات والعقود الأجلة والمؤشرات الخ.
١٢. أحمد، الإمام أحمد بن حنبل: مسند أحمد، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٧٨، ١٥/٦٥-٦٤، الألباني، ابن ماجه: صحيح ابن ماجه، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٦، ١٤/٢.
١٣. قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ٣٠٦/١.
١٤. ابن كثير، اسماعيل بن عمر الدمشقي: تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١، ٣١٧/١.
١٥. قحف، منذر: اقتصاديات الزكاة، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، البنك الإسلامي للتنمية.
١٦. الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي: أحكام القرآن، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٠٥ هـ، ١٨٠/٢.
١٧. تتجه النظريات الحديثة في التنمية إلى أن الإنفاق يجب أن يوجه إلى أكثر فئات المجتمع فقرا، بحيث يتم توفير الحدود الاستهلاكية الدنيا للجميع، انظر: محبوب الحق: ستار الفقر، ترجمة أحمد فؤاد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧، ص ١٥٥-١٥٦.

سابعاً: الإنفاق الإلزامي (فريضة الزكاة):

ورد الأمر بإخراج الزكاة في آيات عديدة من سورة البقرة، ولو اقتصر الأمر على إخراج الزكاة دون سواها من أدوات الإنفاق الأخرى، لكان كفيلاً وحده بضبط عمليات الطلب بحيث تكون آثارها زيادة في الاستقرار الاقتصادي، فالزكاة تعمل على نقل النقود ذات المنفعة الحدية المنخفضة إلى الفقراء فتصبح ذات طاقة عالية ومنفعة حدية مرتفعة.

كما تعمل على تحفيز الطلب من خلال انتقال الأموال من أشخاص ذوي ميول استهلاكية حدية منخفضة إلى الفقراء أصحاب الميول الحدية الاستهلاكية المرتفعة والتي تعمل على زيادة الطلب وبالتالي زيادة التشغيل والانتاج والدخل.

وحول مسألة استمرارية وديمومة الإنفاق، فإن إنفاق الزكاة يشكل تياراً متدفقاً بشكل دائم في كل لحظة على مدار السنة، نظراً لاختلاف حولان الحول من شخص إلى آخر. فني كل لحظة يحول الحول على أموال مجموعة من المسلمين فيخرجوا الزكاة. وهكذا تشكل الزكاة مصدراً دائماً للإنفاق على الجهات الثمانية التي تمثل مصارف الزكاة المحددة في القرآن الكريم. كما أن الزكاة تعمل على إعادة توزيع الدخل من خلال عملية تصحيحية تتمثل في نقل الأموال الفائضة لدى الأغنياء والتي كانت ستوجه لأغراض كمالية غالباً إلى الفقراء والمساكين وبقية الأصناف الثمانية والتي سوف تقوم بتوجيه هذه الأموال لأغراض أساسية كفاية غالباً.

المراجع والمصادر:

١. خلاف، عبد الوهاب: علم أصول الفقه، مكتبة الدعوة، شباب الأزهر، عن الطبعة الثامنة لدار القلم، ص ٢٦.
٢. يتحقق الاستقرار الاقتصادي في الفكر الاقتصادي الحديث من خلال المحافظة على نسب ثابتة من التضخم أو الانكماش أو البطالة أو عجز الموازنة وغيرها من المؤشرات التي أصبحت متلازمة مع الاقتصادات المعاصرة، فعدم وجود تقلبات في هذه المؤشرات يعتبر دليلاً على وجود استقرار اقتصادي.
٣. في لقاء معه بجريدة الشرق الأوسط بتاريخ ٦/يناير/٢٠٠٩ صرح الخبير الأمريكي روبرت مايكل، بأن الأزمة العالمية لم تكن لتحدث لو كان العالم يتبع التمويل الإسلامي بدلا من الرأسمالي وذلك لأن القيود الواردة في القرآن الكريم - إذا ما تم تطبيقها بدقة - كانت ستمنع حدوث تجاوزات الرافعة المالية والمقامرة على المشتقات التي أدت إلى الانهيار الحالي.
٤. وكذلك دعا بوفيس فانسون رئيس تحرير مجلة «تشيالينجز» الأوروبية، في افتتاحية له بعنوان (الابايا أو القرآن) إلى الرجوع إلى القرآن للتخلص من آثار الأزمة المالية العالمية. انظر إسلام أون لاين ٣/١٠/٢٠٠٨.
٥. لأغراض بحثية ونظراً لصعوبة الإحاطة بكافة سور القرآن الكريم في هذه الدراسة المختصرة، فسوف يتم البحث في موضوع الاستقرار الاقتصادي من خلال آيات سورة البقرة فقط.
٦. يتحقق التوازن الاقتصادي العام في النظرية الكينزية من خلال تساوي الطلب الكلي مع العرض الكلي، وبالتحديد فإنه لا بد من تساوي الطلب الكلي مع العرض الكلي في جميع الأسواق وفي نفس الوقت، مع الوصول إلى العمالة الكاملة في سوق العمل. ولا شك أن هذه حالة افتراضية مثالية لا يمكن الوصول إليها، وبالتالي تعمل جميع الحكومات على الوصول إلى درجة مقبولة من الاستقرار الاقتصادي بحيث تخففي الأزمات الاقتصادية أو تقل حدتها إلى أدنى درجة ممكنة.



بعض ملامح الإعجاز القرآني الاقتصادي في معالجة الأزمة المالية العالمية

الحلقة (٢)

من المن والأذى، جاءت المجموعة التالية من الآيات من أجل استئصال عادة أو سلوك أو داء أشد خطرا وفحشا إنه داء الربا.

وذلك من خلال مشاهد تصويرية حية تخترق أعماق النفوس وتغلغل في القلوب وتترسخ في الأذهان في قوله تعالى قال تعالى: (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

إنها حالة مفزعة وتصوير مرعب. صورة الممسوس المصروع. ذلك حال المرابي. ومع أن معظم التفاسير تقول إن هذه صورته يوم القيامة. إلا أن ذلك لا يمنع أن تكون هذه صورته في الدنيا كذلك^٢. " ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا" هذه كانت حجة أهل الجاهلية الأولى، وهي كذلك حجة المرابين في الجاهليات المعاصرة، إنما البيع مثل الربا، ولكن الله عز وجل، يرد عليهم بأن البيع حلال والربا حرام. والفروق بينهما كبيرة جدا. فالبيع عقد معاوضة يقوم البائع فيه بجهد نقل أو تخزين السلعة أو تسمينها في حالة الثروة الحيوانية أو غير ذلك من أشكال الجهود التي تضيف منافع إلى السلع وإلى المجتمع أما الربا فلا جهد فيه أبدا،

• البائع يتحمل مخاطرة هلاك السلع وبالتالي يمكن أن يربح أو يخسر أما المرابي فلا يخسر أبدا.

• وإن عملية حسابية بسيطة كما يقول شاخت توضح أن الأموال في العالم سوف تتجمع لدى المرابين لأنهم لا يخسرون أبدا ويترتب على ذلك أن يكون المال دولة بيد هؤلاء المرابين، ويحرم منه معظم البشر.

ومع ذلك، وبالرغم من زيادة التقدم المادي في الغرب، وفي مجتمعات المرابين بشكل عام، فإن الله عز وجل يقول: (يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيَرْبِّي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ).

إن البركة لا تتحقق بزيادة التقدم المادي أو زيادة متوسط دخل الفرد إلى ٤٧ ألف دولار^٣ في بعض الدول الأوروبية أو ٣٧ ألف

أ.د/ كمال توفيق خطاب

وكيل الجامعة للشؤون الأكاديمية
جامعة المدينة العالمية



الآيات المنظمة للعرض الاقتصادي

يشمل العرض بالمعنى الاقتصادي عرض الإنتاج من سلع وخدمات وعرض العمل أو الجهود البشرية كما يشمل عرض النقود.

وقد اعتمد الفكر الاقتصادي الكلاسيكي على قانون ساي والذي ينص على أن كل عرض يخلق الطلب عليه، في حين ذهب الفكر الاقتصادي الكينزي إلى أن الطلب الفعلي هو الذي يوجد العرض، وبعبارة عن هذا الجدال الدائر في الفكر الاقتصادي، فإنه لا يستطيع أحد أن يقلل من أهمية العرض والضوابط والعناصر المؤثرة فيه.

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم - وفي سورة البقرة محل الدراسة كما سبق - فإننا سوف نجد ضوابط قرآنية منظمة للعرض الاقتصادي تقف إلى جانب تلك الضوابط المنظمة للطلب الاقتصادي لعل من أهمها ضابط تحريم الربا باعتباره من أهم وأبرز الضوابط في مجال تحقيق الاستقرار والعدالة والتوازن الاقتصادي في المجتمع، وقد ورد الوعيد لآكلي الربا في سورة البقرة بالحرب والثبور، وأوضحت آيات سورة البقرة الفروق الحقيقية بين البيع وبين الربا، كما حثت على انظار المعسرين، والتصديق عليهم إذا كان ممكنا.

تحريم الربا^١:

يعد تحريم الربا من الضوابط القرآنية لعرض السلع والخدمات، فمن المعلوم أن المنتجين يضيفون أسعار الفائدة على تكاليف الإنتاج وبالتالي ترتفع الأسعار، وعندما تزداد الفائدة بسبب المضاربات عليها تزداد التكاليف بشكل أكبر وتزداد الأسعار العالمية، وهذا هو السبب الأول في ظاهرة التضخم التي تعاني منها كافة اقتصادات دول العالم.

وإذا رجعنا إلى آيات سورة البقرة، وبعد أن رسخت آيات الإنفاق سلوك الإنفاق في القلوب والجوارح، وعالجت القلوب المريضة

ثم نسخ الوجوب بقوله تعالى فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي أؤتمن أمانته روي ذلك عن ابي سعيد الخدري والشعبي والحسن وقال آخرون هي محكمة لم ينسخ منها شيء^٥ .

تؤكد الآيات على وجوب كتابة الديون الصغيرة أو الكبيرة، كما تعطي للكتابة والشهود الحصانة والحماية^٦ ولا يضار كاتب ولا شهيد، وإن فعلوا فإنه فسوق بكم^٧ كل ذلك من أجل زيادة الثقة والاستقرار.

لقد حرص الإسلام كل الحرص أن يكون المؤمنون كالبنيان المرصوص وكالجسد الواحد. وإن هذه المعاني لا يمكن أن تتحقق إذا كانت الصدور مليئة غيظا وظلما، من أجل ذلك حرص الإسلام على سد كافة المنافذ التي يمكن أن تؤدي إلى النزاع أو الخصومة، ومن ذلك الأمر بكتابة الديون والتشديد على توثيق هذه الكتابة لدى كاتب العدل مهما كانت هذه الديون صغيرة أو كبيرة. وزيادة في التوثيق لا بد من الإشهاد.

إن هذه التوثيقات الكتابية في هذه الآيات، تمثل السياج الواقعي من الاختلال والتصدع وانهايار الثقة بين الناس. لأن انهيار الثقة سوف يؤدي إلى انهيار المجتمع بالكامل.

إن هذه الآيات وما تضمنته من أحكام تعتبر من أبرز الأمثلة على وجود سياسات أو ضوابط قرآنية لتحقيق الاستقرار الاقتصادي في المجتمع، بحيث تكفل فيما لو طبقت، تجنب الاختلالات والأزمات الاقتصادية التي تنجم عن فقدان الثقة والمصادقية، ولعل أبرز مثال لهذه الأزمات الاقتصادية والمالية هو ما حدث في الأزمة المالية العالمية المعاصرة.

المبحث الثاني: الأزمة المالية العالمية وأهم أسبابها

لقد مر وقت قريب، ظن فيه الكثير من دعاة النظام الرأسمالي الغربي أن الرأسمالية قدر حتمي على البشرية، لا يمكن أن تنتهي، وأن على الشعوب أن تسير في ركب النظام الرأسمالي إذا ما أرادت النجاح والتقدم، ومن أبرز من روج لهذه المقولة فوكوياما في كتابه نهاية التاريخ، وفريدمان في كتابه السيارة لكزاس وشجرة الزيتون^٦.



دولار في أمريكا. أو زيادة معدلات الاستهلاك البروتيني أو الكهربائي أو الصناعي. كما يقول خبراء التنمية.

إن التقدم الحقيقي يكون بزيادة الطمأنينة والراحة والسعادة الداخلية. الإشباع الروحي الذي يوجد الرضى والراحة النفسية وهذه الأمور لا تتوفر في الغرب ولا في سائر المجتمعات الربوية، حيث تنتشر العيادات النفسية في كل مكان في تلك المجتمعات.

ونظرا لبشاعة الربا وفحشه، وتعاطم نفوذ المرابين وزيادة قوتهم وسيطرتهم، فقد تطلب الأمر إعلان الحرب عليهم من الله العظيم الجبار المنتقم. قال تعالى (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِغُوا فَلَئِمَّ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَّا تَحْلُمُونَ وَلَا تَتْلُمُونَ)

آيات تحقيق الاستقرار الاقتصادي^٤ :

بعد أن ركزت الآيات السابقة على أهم ما في جانبي الطلب والعرض في المجتمع، عملت على غرس سلوك الإنفاق في المجتمع، كما عملت على استئصال آفة الربا منه، ووجهت إلى المحافظة على استمرارية الاستقرار الاقتصادي في المجتمع.

ويتحقق ذلك من خلال التنظيم الدقيق للمعاملات. وحفظ الحقوق وأداء الأمانات. وتنظيم الديون والمدفوعات المؤجلة.

فليس معنى إلغاء الربا أن تلغى حقوق الناس وديونهم، ولذلك كانت آية المدائنة أطول آية في القرآن الكريم، تأمر بالكتابة والتوثيق لدى كاتب العدل وفوق ذلك لا بد من الإشهاد. كل ذلك من أجل حفظ الحقوق والديون. وبالتالي استمرارية النشاط الاقتصادي والاستقرار الاقتصادي. فاهتزاز الثقة بين التجار هو أول ما يعصف بالاستقرار الاقتصادي. قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبغض منه شيئا فإن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن فعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم (٢٨٢)

جاء في كتاب أحكام القرآن للجصاص: " قال أبو بكر: ذهب قوم إلى أن الكتابة والإشهاد على الديون الآجلة قد كانا واجبين بقوله تعالى فاكتبوه إلى قوله فاستشهدوا شهيدين من رجالكم،

وقد سبق بيان تحريم الربا بشكل عام وفي مجال العرض الكلي، ونوضح هنا كيف كان الربا والتعامل بالفائدة من أهم أسباب الأزمة: فالتعامل بالهامش، والافتراض بالفائدة، ونظام الرافعة المالية، وكذلك التعامل بالمؤشرات والخيارات والمستقبلات وكافة العقود الآجلة والعاملات الوهمية كلها ساهمت في الوقوع في الأزمة.

وبشكل مختصر فقد بالغت البنوك والمؤسسات المالية الأمريكية في منح القروض العقارية بأسعار فائدة قابلة للتغير، دون ضمانات كافية، مما أدى إلى تعثر المدينين عن السداد بسبب ارتفاع سعر الفائدة.

ومن المتفق عليه اقتصادياً أن ارتفاع سعر الفائدة يثبط همم المستثمرين والمنتجين لأن التكاليف سوف تزداد عليهم وتقل أرباحهم، أما انخفاض سعر الفائدة فيعتبر عاملاً قوياً في زيادة الاستثمار والتشغيل، ولذلك نادى العديد من الاقتصاديين بأن يقترب سعر الفائدة من الصفر، حتى يتمكن الجميع من الحصول على التمويل وبالتالي زيادة التشغيل والقضاء على البطالة نهائياً.

إن للربا آثاراً تدميرية على الإنتاج والمنتجين، فالتكاليف في ازدياد دائم، وكذلك الأسعار، مما يؤدي إلى زيادة التضخم بكافة أشكاله وأنواعه.

كما أن وجود الفوائد المركبة يزيد في إرهاق المستثمرين والمنتجين ويقلل من قدراتهم على التوسع وزيادة الإنتاج لأن في ذلك رفع للتكاليف وهو ما يؤدي في النهاية إلى تضخم النقطة.

المراجع والمصادر:

1. لا يعني اختيار مثال الآيات التي تناولت تحريم الربا بأنها هي وحدها الآيات المنظمة للعرض الاقتصادي بأي حال من الأحوال، وإنما المسألة هنا هي تمثيل واستشهاد لأدوات تنظيم العرض الاقتصادي
2. قطب، سيد: في ظلال القرآن، مرجع سابق، 1/ 324
3. تعتبر السويد من أكثر دول العالم رفاة من حيث ارتفاع معدل متوسط دخل الفرد، ولكنها في الوقت نفسه أكثر دول العالم من حيث معدلات الانحلال، وذلك يثبت بشكل واضح أن الأساس المادي الربوي الذي يقومون عليه أو هن من بيت العنكبوت.
4. نعرض في هذه الدراسة لأية المدابنة في سورة البقرة كمثل على آيات عديدة لا حصر لها بنجم عن تطبيقها المزيد من الاستقرار والوازن الاقتصادي.
5. الجصاص: أحكام القرآن، مرجع سابق، 2/ 205
6. خطاب، كمال: رؤية إسلامية نحو العولمة، مجلة إسلامية المعرفة، عدد 35، 2005، ص 97-99
7. إسلام أون لاين، 18 سبتمبر 2008 ويتوقع الخبراء انفجار فقاعات أخرى سيكون لها آثار مدمرة بشكل أكبر مثل فقاعة بطاقات الائتمان، و فقاعة سندات الخزينة الأمريكية. الخ
8. الجزيرة نت، 9/10/2008
9. مجلة الاقتصاد والأعمال عدد 346، 347
10. يرى البعض أن هذه الأزمة هي نتيجة أفعال المجتمعات الغربية، وبالتالي فالمسلمون ليسوا مسؤولين عنها، والحقيقة أن الإسلام رسالة رحمة للعالمين، فتمتى وأينما كان يمكن للإسلام أن يقدم النصح أو العلاج أو الإنقاذ فإنه لن يتأخر، فإفناذ البشرية من الظلمات إلى النور هي المهمة الأولى لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

وظن كثير من المفكرين العرب والمسلمين أن هذه الحقيقة لا تقبل الدحض، وجاءت الأيام لتثبت أن أصول وأسس الاقتصاد الرأسمالي أو هن من بيت العنكبوت.

فها هو توماس فريدمان بعد الأزمة يصف الاقتصاد الأمريكي بأنه اقتصاد مقامر لا مغامر، وأن "وول ستريت" أو مركز صناعة المال والأعمال في الولايات المتحدة قد تحول إلى قفاعة في السنوات الأخيرة^٧.

وها هو فوكوياما يقول " لقد كانوا على الحق، فقد أفرزت سياسة التحرير وحدها طوفانا من المنتجات الجديدة المبتكرة كسندات الدين المكفولة بضمانات إضافية، والتي هي جوهر الأزمة الراهنة"^٨.

لقد جاءت الأزمة المالية العالمية لكي تقلب الموازين وتدعو جميع الأطراف المؤثرين والمتأثرين بالاقتصاد العالمي إلى مراجعة حساباتهم ومحاولة تخفيف الظلم وحدة التفاوت والاستغلال بين الشعوب.

انخفضت القيمة السوقية لأسهم المصارف الأمريكية حتى سبتمبر 2008 بما يقارب 700 مليار دولار، وكان على رأس هذه المصارف الأمريكية سيتي جروب، وبنك أوف أمريكا، وجولدان ساكس، وأمريكان إكسبريس، ومرجان ستانلي، وفاني ماي، وفريدي ماك، وميريل لينش وليمان براذرز، وواشنطن ماشاوال.. الخ وهناك تقديرات بأن التراجع في اسعار العقارات قد أدى إلى خسائر بقيمة خمسة تريليون دولار من ثروات الأمريكيين. كما أن الانخفاض في اسعار الأسهم قد أدى إلى خسائر بقيمة 8 تريليون دولار.

وتشير بعض التقديرات إلى أن حجم الخسائر في قيم الأصول في البورصات العالمية قارب 25 تريليون^٩.

أسباب وقوع الأزمة :

من أجل التعرف على الحلول والعلاجات القرآنية للأزمة المالية العالمية ، لا بد من تحليل الأسباب التي أدت إليها، وسوف يتم التركيز على خمسة أسباب رئيسية جامعة لمعظم الأسباب الثانوية، وسوف نجد في المبحث الثالث من هذه الدراسة أن العلاج القرآني للأزمة يقوم على اجتثاث واستئصال هذه الأسباب من جذورها من المجتمع:

أولاً: مشروعية التعامل بالربا :

إن أساس الأزمة المالية العالمية^{١٠} في الوقت الحاضر هو: المشروعية القانونية للتعامل بالفائدة وكافة الأدوات والأساليب المنبثقة عنها كنظام الرافعة والبيع على المكشوف والهامش وبيع الآجال والمستقبلات والخيارات. وكل هذه العقود تقوم على الربا المحرم في كافة الديانات السماوية.

بعض ملامح الإعجاز القرآني الاقتصادي في معالجة الأزمة المالية العالمية



الحلقة (٣)

أ.د/ كمال توفيق خطاب
وكيل الجامعة للشؤون الأكاديمية - جامعة المدينة العالمية

ثانياً: التوريق وانعدام القبض الحقيقي:

يطلق عليه التصكيك، وقد ظهر مفهوم التصكيك securitization في العصر الحديث في الولايات المتحدة عام ١٨٨٠م، وكان يقصد منه تصكيك الديون والرهنات، ثم تحولت عملية التصكيك لتشمل كافة الأصول المالية، وأطلق بعضهم على هذه العملية مسمى السنددة، وذلك بتحويل الديون أو الأصول الإنتاجية إلى صكوك يتم تداولها في سوق ثانوية^١.

وتتم عملية التصكيك من خلال قيام مؤسسة ما بتجميع أصولها غير السائلة وتحويل ملكيتها إلى صندوق أو مؤسسة أخرى تقوم بإصدار صكوك تساندها تلك الأصول، ومن ثم تقوم بإتاحتها للتداول في الأسواق المالية، بعد أن يتم تصنيفها اثتمانياً^٢، وكذلك بعد خضوعها لعدد من الإجراءات الفنية.

وقد قامت البنوك في أمريكا بتوريق الديون، وطرح سندات الديون في أسواق الأوراق المالية الثانوية بضمان العقارات المرهونة، وقامت أصحاب هذه السندات بالتأمين عليها لدى شركات التأمين، وقامت البنوك بتمويل قروض جديدة بضمان سندات الدين المؤمنة، وعندما تعثر أصحاب العقارات في سداد ديونهم بسبب ارتفاع أسعار الفائدة، تدهورت قيمة هذه السندات، وانخفضت الثقة فيها، مما أدى إلى تدهور الأصول المالية للشركات، وبالتالي إفلاس شركات التأمين. ولما قامت البنوك بسحب استثماراتها من السوق المالي لتغطية مراكزها المالية المتدهورة بسبب خسائرها المستمرة، انهار السوق المالي والمصرفي.

وبشكل مختصر يمكن توضيح أسباب الانهيار في النقاط التالية:

- عجز أصحاب المساكن عن دفع الأقساط بسبب ارتفاع الفوائد.
- عرض المساكن للبيع دون وجود مشترين.
- توقف مؤسسات الرهن العقاري عن منح القروض العقارية.
- انكشاف سندات الرهن العقاري وتدهور قيمها.
- رجوع حملة السندات على شركات التأمين لتغطية قيمتها.
- إفلاس شركات التأمين.
- فقدان السندات قيمتها بالكامل.
- إفلاس البنوك التي أخذت السندات كضمانات.

- فقدان الثقة بين البنوك.
- توقف الإقراض والاقتراض بين البنوك..
- فشل الحكومة الأمريكية في وقف التدهور.
- انتشار فقدان الثقة إلى معظم البنوك العالمية.

ولو تأملنا الأسباب السابقة والتي تتفرع عن التوريق لأمكن القول أن معظم هذه العوامل تعود إضافة إلى الربا وسعر الفائدة إلى انعدام القبض الحقيقي، فالاقتضادات المالية العالمية تقوم على المقامرات والمراهنات والبيع الوهمية، وعلى بيع المؤشرات وبيع الديون مقابل الديون وبيع الخيارات والمستقبليات والعقود الآجلة، وجميع هذه البيوع لا يتحقق فيها قبضا لمبيع، ولا انتقالا لسلعة، كل ما في الأمر، هو أن أحد الطرفين يجني أرباحا، والآخر يخسر.

ثالثاً: فقدان الثقة وعدم انظار المعسرين:

إن عدم وجود نظام لإنظار المعسرين عجل في انهيار الثقة وتدهور قيم العقارات مما أدى إلى تدهور قيمة السندات، وبالتالي انهيار البنوك والمؤسسات المالية المرتبطة بها.

إن مبدأ إنظار المعسرين يشكل أداة تحوط اقتصادية تمنع الاقتصاد القومي من الانهيار والسقوط في براثن الكساد العظيم.

رابعاً: سوء توزيع الثروة:

يوجد في الولايات المتحدة أكثر من ٣٥٠ مليارديرا يمتلكون أكثر مما يمتلكه نصف سكان العالم^٣.. إن هذا التفاوت الحاد بين الناس هو أساس المشكلات والأزمات الاقتصادية، بما يشتمل عليه من ظلم واستغلال للعمال وبالتالي من بطالة وكساد.

وليت الأمر وقف عند هذا الحد من التفاوت الحاد وسوء التوزيع، ففي نهاية التسعينات من القرن الماضي اجتمع كبار الشخصيات العالمية من أصحاب الشركات الكبرى في فندق فيرمونت في سان فرانسيسكو ليرسموا معالم القرن الحادي والعشرين.

وقد رأى هؤلاء وتحت تأثير الأرباح الفلكية التي تتحقق من خلال الأسواق المالية والنقدية، ورغبة في زيادة هذه الأرباح من خلال خفض التكاليف وبخاصة أجور العمال، رأوا أن ٢٠٪ من حجم العمالة المتوافرة في العالم تكفي لتسيير الاقتصاد العالمي في القرن الحادي والعشرين،

المبحث الثالث

ملاحح الإعجاز القرآني في حل الأزمات

سبقت الإشارة في المبحث الأول إلى أمثلة واضحة ومحددة لآليات تحقيق الاستقرار الاقتصادي في ضوء آيات القرآن الكريم، ومع أن هذه الآيات تمثل سياسات وقائية من الوقوع في المشكلات أو الأزمات فيما لو تم تطبيقها والعمل بها بشكل كامل، إلا أن البشر جبلوا على المعصية والوقوع في الأخطاء، ولذلك رأينا في المبحث الثاني أسباب الأزمة المالية العالمية تتمثل في ارتكاب المخالفات والمحظورات الشرعية، وفي هذا المبحث سوف نركز على العلاج القرآني للأزمات، وبالتحديد علاج الأزمة المالية العالمية بشكل خاص. وسوف نجد أن العلاج القرآني يكمن في القضاء على الأسباب المؤدية للأزمة:

أولاً: إلغاء الربا والتعامل بالفائدة:

قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين (٢٧٨)) فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون (٢٧٩) .

لقد أوجدت الآيات القرآنية الحلّ قبل أربعة عشر قرناً، عندما أعلنت الحرب على آكلي الربا وأعاونهم وكل المتعاملين معهم، جاءت الآيات تصف المرابين ودورهم الخبيث في المجتمع، وتعلن الحرب الشاملة التي لا تبقى للربا بقية أو جذور.

إن إلغاء الربا يترتب عليه إلغاء لكافة آثاره المدمرة للمجتمعات، ومنها:

- إلغاء الفوائد المضاعفة والمديونيات المتفاقمة.
- إلغاء البيع بالهامش والمؤشرات، وبيع الديون، وصرف المليارات الموجهة إليها الى اغراض حقيقية تنفع الناس، وتزيد في رفاهيتهم.
- خفض الاسعار نتيجة لخفض التكاليف وما يترتب على ذلك من زيادة في الانتاج والتشغيل، وبالتالي خفض معدلات البطالة والكساد.

وبالتالي لا حاجة إلى ٨٠٪ من العمال في العالم.. ومعنى ذلك أنه لا حاجة لتوظيف الملايين وربما مئات الملايين في الوقت الذي يمكن الاستغناء عنهم وتوفير أجورهم.

وقد حضر هذا الاجتماع كل من هانسن بيتمارتين وهارالد شومان مؤلفا كتاب فح العولمة وأشارا في كتابهما إلى ما دار في هذا الاجتماع، وما خطط له الحاضرون حول مستقبل العمالة.

فالمسألة ليست تفاوتاً طبيعياً حاداً بين الأغنياء والفقراء، وإنما هو تفاوت مخطط ومصطنع، فهؤلاء الأغنياء لم يعودوا بحاجة إلى قوة العمل، فأرباحهم الفلكية في الأسواق المالية تغنيهم عن إقامة المصانع أو المزارع أو الشركات أو غيرها، فهي صناديق التحوط وصناديق الاستثمار تحقق لهم المليارات دون أدنى عناء، كل ما يحتاجونه هو مدراء ماليون يجيدون لعبة المخاطر بحيث يضاربون في الأسواق المالية مستخدمين أرقى وسائل التحوط التي تحول دون حدوث الخسائر.

وبالرغم من أنهم بذلوا أفضل طاقاتهم، ووظفوا عباقرة المال وعباقرة الرياضيات وحملة جوائز نوبل في الرياضيات وإدارة المخاطر، إلا أنهم لم يسلموا من نتائج الأزمة المالية المعاصرة، فقد لحقت بهم خسائر بالمليارات، ولكن حجم التأثير على الفقراء وعلى شعوب العالم الثالث كان كارثياً.

لقد بالغ الرأسماليون في إشباع شهواتهم حتى ظنوا أن السعادة لا تتحقق إلا بإشباع اللذة، وأنه لا سبيل إلى ذلك إلا بزيادة الاستهلاك وتعميم المنفعة وزيادة الأرباح، ولو كان ذلك على حساب الفقراء والمعدمين والمحرومين.

خامساً: اكتناز الأموال:

الاكتناز بالمعنى الاقتصادي هو الاحتفاظ بالنقود بدافع المضاربة والحيلة، فهو طلب على النقود للسيولة أو احتفاظ بنقود عاطلة غير متداولة °.

إن النقود هي واسطة انتقال السلع والخدمات، فإذا حبست هذه الواسطة توقفت حركة السلع والخدمات وأصيب المجتمع بالشلل والكساد، ولحق بالناس ضرر عظيم حيث تزداد البطالة ويتوقف التشغيل والإنتاج.

ولعل أفضل تشبيه للنقود في أداؤها لوظائفها هو وسائل النقل والمواصلات، فالحافلات والسيارات تنقل الأشخاص من مكان إلى آخر، فإذا حبست هذه الحافلات تعطلت حركة الناس ولحق بهم ضرر عظيم.



ثانياً: الحث على القبض قبل البيع:

قال تعالى "وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كتاباً فإرهنان مقبوضاً" لعل من أبرز أسباب الأزمة المالية العالمية المعاصرة عدم وجود الرهون المقبوضة، فقد كانت معظم الرهون وهمية ولا تمثل شيئاً حقيقياً.

إن تشريع مبدأ الرهان المقبوضة في المداينات فيه حفظ لحقوق الناس ووقاية للاقتصاد من الأزمات، كما يؤخذ منه ضرورة القبض في المعاملات الآجلة، فلا بد من قبض المبيع قبل بيعه، كما حث على ذلك النبي صلى الله عليه وسلم في قوله لحكيم بن حزام "لا تبع ما ليس عندك" وفي قول ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع الطعام قبل قبضه، ثم علق ابن عباس بقوله "وأحسب كل شيء مثله" أي مثل الطعام في ضرورة القبض.

وبالرغم من الاختلاف الكبير بين الفقهاء في حقيقة القبض وكيفية، والذي يعود لاختلاف أعراف الناس وظروفهم، فإن الإعجاز القرآني حاسم في تأكيده على ضرورة الرهان المقبوضة، والتي لا يختلف تصورهما باختلاف الزمان والمكان، دفعا للفرر والمبايعات الوهمية والتي جاءت الازمة المالية العالمية منها بشكل مباشر.

ثالثاً: إيجاد نظام لإنظار المعسرين:

قال تعالى: (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون)

إن مبدأ إنظار المعسرين من شأنه أن يحول دون تدمير المدين وإخراجه من السوق، وعلى المستوى الكلي فإن وجود نظام لإنظار المعسرين على مستوى الاقتصاد الوطني أو على مستوى المصارف والمؤسسات المالية سوف يكون له نتائج إيجابية هامة على أداء الاقتصاد الوطني وحمايته من التدهور والانهايار.

فإنظار المعسرين سوف يعطيهم فرصة أفضل للسداد، كما يحفظ قيمة الضمانات التي قدموها للدائنين من التدهور والانهايار، وبالتالي يمنع انهيار الأسواق، وحدوث الأزمات المالية، وهو ما حدث في ظل الأزمة المالية العالمية المعاصرة.

ولكن هذا المبدأ لا يعمل وحده، بل لا بد من وجود نظام متكامل يتكون من تشريعات واضحة تنظم إنظار المعسرين على مستوى كافة المؤسسات المالية الوطنية، وخاصة المصارف الإسلامية.

وبالتالي ينبغي أن يكون تطبيق هذا النظام جزءاً من أقسام إدارة المخاطر في المؤسسات الاقتصادية والمالية في المجتمع. فإدارة المخاطر لا يصح أن تبقى محصورة في المزاوجة بين تحقيق أعلى عائد وأقل مخاطر ممكنة، وإنما لا بد أن يضاف إليها تحقيق حماية ورعاية ورضى وملاءمة العميل ونجاحه في مشروعاته واستثماراته^١

رابعاً: تخفيف حدة التفاوت:

قال تعالى "كَيَّ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ أَنْ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) (سورة الحشر)

عمل الإسلام على تخفيف حدة التفاوت بين الناس، وتحقيق عدالة توزيع الثروة، وذلك من خلال نظم التوزيع الإسلامية، والتي يقف على رأسها نظام الزكاة، ونظام الميراث ونفقة الأقارب، فالزكاة تعمل على إعادة توزيع الدخل من الأغنياء إلى الفقراء، فهي تعمل على تطهير أموال الأغنياء وقلوبهم من الشح والبخل والتقتير، وتبدلهم بطاقات إيجابية تدفعهم إلى زيادة العطاء والمشاركة الإيجابية في العملية الإنتاجية. كما تعمل الزكاة على تمكين الفقراء ذوي الميول الحدية الإستهلاكية المنخفضة من زيادة الطلب الكلي فيزداد الإنتاج والتشغيل.

كما يؤدي نظام الميراث الإسلامي إلى توزيع الثروة بين أكبر عدد من الناس، وهو بذلك يقلل من حدة التفاوت بين الناس، ويحد من تكسب الثروة بيد الأغنياء، ويمتاز هذا التوزيع بأنه توزيع هادئ^٢، يتلاءم مع ما تقتضيه الفطرة، ويشعر جميع الأطراف بالرضى والاطمئنان نتيجة لهذا التوزيع.

وقد لخص الاقتصادي بولدنج الأهمية الاقتصادية لإعادة التوزيع الناجمة عن نظام الميراث، بقوله "إذا افترضنا مجتمعاً يبلغ العمر المتوقع فيه ٧٠ سنة مثلاً، وتتوزع فيه الثروة بين مختلف الأعمار على نحو متساو، فإن ٧٠/١ من الثروة ستنقل بالموت والإرث كل سنة، فإن كان معامل الدخل إلى رأس المال يقارب (٣)، فإن الثروة المنتقلة بالإرث تولد حوالي (٧٠/٣) أي ٤٪ تقريباً من الدخل كل سنة، ولما كان المسنون أغنى من الأحداث، فإن النسبة ستكون أعلى من ذلك، بل ربما تبلغ ٨ - ١٠٪^٣.

إن الإسلام يعمل بكافة أنظمتها على ألا يكون المال دولة بين الأغنياء فقط، لما يترتب على ذلك من مفاصد خطيرة، تنجم عن سيادة أخلاق الأنانية والجشع والاستغلال، واستعباد الإنسان للإنسان، كما تتمثل في حرمان معظم المجتمع من الانتفاع بالموارد التي هيأها الله - عز وجل - للناس جميعاً، وما يؤدي إليه ذلك من انتشار الحقد والبغضاء والكراهية بين الناس، إضافة إلى الغش والكذب والرشوة وأكل أموال الناس بالباطل.

ويؤدي نظام الميراث الإسلامي إلى توزيع الثروة بين أكبر عدد من الناس، بما يؤدي إلى زيادة عدد الطبقة المتوسطة، وبالتالي تقليل حدة التفاوت الطبقي.

خامسا : تحريم الاكتناز:

(يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب أليم) . (سورة التوبة)

فالمكتنزون يلحقون بأنفسهم وبالجماع ضررا بالغا، فهم يظلمون أنفسهم عندما يجعلون من أنفسهم حراسا للأموال، ويزيدون داء الشح في نفوسهم وداء الاستزادة، ولذلك كان عقابهم في الآخرة من جنس عملهم، عقاب أليم وفظيع، بأن تحمي هذه الدنانير الذهبية والدراهم الفضة فتكوى بها جباههم وجنوبهم، ويقال لهم ذوقوا ما كنزتم.

إنها صورة بيانية مفزعة تخلع القلوب، وتستأصل منها داء الشح والتقتير.

الخاتمة:

يقول بوفيس فانسون رئيس تحرير مجلة تشالنجر الأوروبية "أظن أننا بحاجة أكثر في هذه الأزمة إلى قراءة القرآن بدلا من الإنجيل لفهم ما يحدث بنا وبمصارفنا لأنه لو حاول القائمون على مصارفنا احترام ما ورد في القرآن من تعاليم وأحكام وطبقوها ما حل بنا ما حل من كوارث وأزمات وما وصل بنا الحال إلى هذا الوضع المزري؛ لأن النقود لا تلد النقود"⁹.

لقد بات واضحا للعالم في وقتنا الحاضر أكثر من أي وقت مضى، ومن خلال الرؤية الاقتصادية القرآنية في معالجة الأزمات والتي اعترف بها غير المسلمين قبل المسلمين - بات واضحا بأنه لا غنى للبشرية عن تعاليم القرآن.

وقد تبين لنا من خلال هذا البحث ملامح إعجاز المنهج القرآني في معالجة الأزمات بشكل عام، والأزمة المالية العالمية بشكل خاص، وهذه الملامح هي أهم النتائج التي توصلت لها هذه الدراسة ويمكن اختصارها في النقاط التالية:

أولا: الحث المستمر على استمرارية تدفق تيار الإنفاق على الطيبات ، وعدم السماح بتوقفه مهما كانت الأسباب.

ثانيا: إلغاء الربا بكافة أشكاله ومسمياته وأنواعه، وبالتالي إلغاء كافة المعاملات المترتبة عليه من بيع بالهامش أو المؤشرات أو المشتقات أو غيرها من المقامرات والمراهنات.

ثالثا: تفعيل مبدأ إنظار المعسرين وذلك لما فيه من مصلحة للدائنين والمدنيين تجنباً لانهايار الثقة وبالتالي التدهور المالي والاقتصادي.

رابعا: تفعيل نظام الزكاة وما يشتمل عليه من معونة للفقراء والمساكين والغارمين.

خامسا: إلغاء الاكتناز وكافة أشكال حبس النقود عن الاستثمار الحقيقي.

التوصيات:

- الاعجاز الاقتصادي أحد جوانب الإعجاز في القرآن الكريم التي تحتاج كل الدعم والمساندة نظرا لما للاقتصاد العالمي من أهمية بالغة في حياة المسلمين وكافة الشعوب.
- لا بد من تفريغ فريق علمي للكشف عن ملامح الإعجاز الاقتصادي من أجل إنقاذ البشرية من الفوضى والتخبط الاقتصادي الذي تعيشه.
- يمكن للإعجاز الاقتصادي في الكتاب والسنة أن يسهم في نشر الإسلام، نظرا لأن البشرية اليوم تفهم بلغة الاقتصاد أكثر من أي لغة أخرى.
- يمكن للإعجاز الاقتصادي أن يزيد من أشكال التعاون والتكامل الاقتصادي بين الشعوب الإسلامية من جهة وبين كافة دول العالم من جهة أخرى.
- دعوة المفكرين والباحثين إلى مضاعفة جهودهم في إبراز الحلول والعلاجات الاقتصادية المثبتة في القرآن الكريم
- إتباع كافة الوسائل والأساليب الممكنة، من أجل تبليغ رسالة الإسلام الإنسانية والاقتصادية للعالمين، وذلك بإتباع أحدث الأساليب العلمية والفنية والإمام والإحاطة بأدق تفاصيل النظرية الاقتصادية.

مراجع البحث:

1. الأمين، أحمد: الصكوك الاستثمارية الإسلامية وعلاج مخاطرها، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 2005، ص 3
2. مظفر، حسين: ورقة مقدمة لمؤتمر التوريق وأسواق رأس المال، بيروت، مارس، 2002، ص 3
3. زلوم، عبد الحي: امبراطورية الشر الجديدة ، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 2003.
4. يقول توبي بيرش " ومن أسوأ عناصر المساهمات الفكرية ما حدث عندما تم توظيف عدد من عباقرة الرياضيات في الأسواق المالية.." دور المشتقات في إحداث الأزمة المالية العالمية، ندوة البركة الثلاثون، جدة، رمضان، 1430هـ.
5. عمر، حسين، موسوعة المصطلحات الاقتصادية، مرجع سابق، ص 43
6. لمزيد من التفصيل انظر: محمد أنس الزرقا: الأزمة المالية العالمية، المديونية المفرطة سببا والتمويل الإسلامي بديلا، مؤتمر الأزمة المالية والاقتصادية العالمية من منظور اقتصادي إسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان، الأردن، 1-2/12/2010 .
7. أحمد العسال، فتحي عبد الكريم: النظام الاقتصادي في الإسلام، دار غريب، القاهرة، 1977، ص 55.
8. الزرقا، أنس: نظم التوزيع الإسلامية، مجلة أبحاث الاقتصاد الإسلامي، المركز العالمي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي، جدة، عدد 1، مجلد 2، 1984، 21
9. إسلام أون لاين 3/10/2008